بتاريخ 03 رجب 1445
الاوامر

الجلسة 53

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ

الاستدلاليةُ التالية من قِبَل الأشاعرَةِ

لقد أسلفنا بأنّ الأشاعرةَ البائِسَةَ لم تُفكّك ـ في أدلتِها على الكلام النفسيّ ـ بأنّ بعضَها تُثبِتُ الكلامَ النفسيَّ لله فحسب و قِطَعاً منها تُمثِّلُ الكلامَ النفسيَّ للإنسان فحسب، فبالتالي لم نَعثُر على دليلٍ آخر يُسجِّلُ كليهما إلا دليلَهمُ الماضيَ الذي قد حذَفَ الإرادةَ في الأمر الامتحانيّ و الإعذاريّ فإن هذا النمط من الأمر يَشترِكُ بين الله و الإنسان.

و الآن سنَستعرِضُ دليلَهم التالي:

لقد تشبَّثوا بالآية التالية: ـ ليُثبتُوا الكلامَ النفسيَّ لله تعالى ـ «وكلَّم الله موسى تكليماً»[1] ثمَّ بَنَوا الاستدلالَ على أربعِ مقدماتٍ قادمة:

1. إنّ التكلّمَ من أوصافِ الله تعالى بلا ارتياب.

2. إنَّ الأوصافَ الإلهيَّةَ كلَّها تُعدُّ قديمةً كذاتِه تعالى إذ لو أصبَحَت حادثةً لأفضى إلى حلولِ الحادثِ في القديم بينما لا تَقعُ ذاتُه القديمةُ محَّلاً للحوادث و إلاّ لَتَقوّمَ القديمُ بالحادث فاستَدعَى الحادثُ التغييرَ في الذات القديم.

3. إنّ الكلام النفسيَّ مدلولٌ للكلامِ اللفظيّ وحيث إنَّ اللفظَ من جملةِ الحوادثِ ـ إذ يَتركَّبُ من الحروف و المُركَّبِ ـ فيُعدُّ تدريجيَّ الحدوثِ بخلافِ الكلام النفسيّ تماماً.

4. إنَّ الكلامَ النفسيَّ حيث يُعدُّ صفةً مكنونةً و قديمةً في النفس الإلهيّ، فسيَختلِفُ عن سنخِ الكلام اللفظيّ ـ ومن غير مقولةِ اللفظ و العلم و الإرادة ـ ولهذا لا يُعدُّ حادثاً أبداً، فبالتالي، نَتّخذُه عنصراً مَخفِيّاً في النفس.

ونتصدَّى لتفكيرِ الأشعريّ المُتَذَبذِبِ هنا:

1. أولاً: بأنّه قد استدلَّ على استحالةِ الكلامِ اللفظيّ ـ نظراً إلى حدوثِه و الحادثُ لا يَلوجُ في القديم ـ بينما هذه الاستدلاليّةُ بالآيةِ الكريمةِ لم تُثبِت لنا تواجُدَ عنصرٍ ثالثٍ في النفس يُسمَّى بالكلام النفسيّ، نعم قد تجشَّمَ في إثباتِ حدوث الكلام اللفظيّ و استحالةِ حلول الحادث في الذات القديم الإلهيّ، فظهورُ الآيةِ هو أنّ الله قد اتّصفَ بصفةِ التكلّم و أين هي من الكلام النفسيّ.

2. ثانياً: إنَّ الآيةَ قد صرّحت بأنَّ الله تعالى قد كلَّمَ موسى عليه السلام، فلو تَسجَّلَ ـ لدى الأشعريّ ـ وجودُ الكلامِ النفسيّ لأصبحَ النبيُّ موسى أيضاً من قِدَمِ الله حتماً، إذ مُتعلّقُ التكلُّمِ الإلهيّ القديم هو نفس النبيّ موسى لأنّه الطرفُ المقابلُ للتكلّم الإلهيّ –كالخالقيّة و الرازقيّةِ ـ فيَتحتّمُ أن نُسجّلَ قِدَمَ النبيّ أيضاً كي يَتحقّقَ الكلامُ النفسيُّ، بينما لا يَخضَعُ له الأشعريُّ المُتطفّلُ نهائيّاً.

3. ثالثاً: إنّ إعرابَ فقرةِ "كلّمَ تكليماً" هو المفعول المطلقُ النوعيُّ ـ لا التأكيديُّ ـ ولهذا لا يَتماثَلُ الكلام الإلهيُّ مع كلام البشر على الإطلاق فإنّ نمطَ تكلّمِ الله قد تحدَّد في الآيةِ التالية: و ما كان لبشرٍ أن يُكلّمَه الله إلا وحياً أو من وراء حجابٍ أو يُرسِلَ رسولاً فيُوحيَ بإذنِه ما يَشاء. فلو أصبحَ كلامُه تعالى نفسيّاً لما تَلاءَمَ مع المفعولِ المطلق النوعيّ، إذ من المُبرَمِ أنّ تكلّمَ الباري تعالى يَتفاوَتُ نوعُه مع جوهرةِ تكلّمِ البشر، فعمليّةُ التكلّمِ قد استَحدَثَت بلونٍ خاصٍّ مع موسى عليه السلام وهذا لا يَتّسِقُ مع الكلام النفسيّ القديم، فرغمَ أنَّ الكلام اللفظيَّ يُعدُّ دالّاً على الكلام النفسيّ و لكنّه لا يُسجّلُ أصلَ وجودِ الكلام النفسيّ فضلاً عن قِدَمِه.

الدليل التالي للأشاعرة

و هنا الأشاعرةُ المُتزَعزِعَةُ قد كفَّت أيديَها عن الآيةِ الكريمةِ فاستدلَّت بوجدانِها بأنّا نُذعِنُ أنّ الله قد اتّصفَ بسِمَةِ التكلُّم حتماً وحيث إنّ ذاتَه قديمٌ فمُواصفاتُه تُعدُّ قديمةً أيضاً لأنّها تتقوّمُ بذاتِه القديم فلا يَقَعُ ذاتُه موطناً للحوادثِ عقلاً، فبالتالي، قد افتَرَضَتِ التكلّمَ الإلهيَّ صفةً نفسيّةً قديمةً.

ولكن نُحاجِجُ الأشعريَّ هنا:

أولاً: إنّه قد فشَلَ في إثباتِ قِدَمِ "التكلّم الإلهيّ" كصفةٍ نفسيّةٍ باطنيّةٍ، بل يبدو نيّراً بأنَّ الأوصافَ الإلهيّةَ لا تُعدّ كلُّها قديمةً ذاتيّةً بل وفقاً للرواياتِ و التحليل العقليّ نَجد أنّه سبحانَه قد حظِيَ بأوصاف فعليّةٍ حادثةٍ، فلا نَضطرُّ إلى تسجيلِ قِدَمِ "صفةِ التكلّمِ الإلهيّ" نهائيّاً.

ثانياً: قد أجابَ المتكلّمونَ ـ رغمَ أن الفلاسفةَ لا تَخضَعُ لهذا التفكير ـ بأن عبارةَ "الله متكلّم" لا يَعني التكلّمَ الاشتقاقيَّ المصطلحَ إذ ليست مبدئُه حدثيّاً بل إنّه مصدرٌ جعليٌّ نظير اللّابنِ و التامر و البقّال و... حيث إنّها قد اشتُقّت من مبدئٍ جامدٍ تماماً بمعني بايعِ اللبن و التَمر و البَقل، فكذلك التكلُّم قد اتُخِذَ من معنى جامدٍ، وعلى ضوئه، إنّ الله تعالى يوجدُ الكلامَ بفعلِه الخارجيّ، فلا يُعدُّ وصفاً قديماً اشتقاقيّاً لكي يَستَشكِلَ الأشعريُّ بأنّه وصفٌ قديمٌ مشتقٌّ من الكلام[2] إذن فتكليمُ الله يَعنى إيجادُ الكلماتِ للمُستمِع وفقاً لآيةِ "ماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً..." فحتى الآن قد انهزَم الأشعريُّ.

وامتداداً لحقيقةِ الكلام، نَستذكِرُ اتّجاهَ الفلاسفةِ كالسيّد الخمينيّ، حيث يُصرّحونَ بأنَّ الألفاظ قد وضعَت للمعاني العامةِ فيأتي المتكلّمُ و يُظهرُ عمّا ما في الضمير عبرَ الكلمات، إذن فالتكلّم هو إظهارُ مطويّاتُ البواطِن، فحيث إنّ المتكلّمَ قد أبدَى عن إرادةِ نفسِه أو عن واقعةٍ خارجيّةٍ عبرَ الكلمات فأصبحَ متكلّماً إذ البشرُ لا يَمتلِكُ مناصاً لإبداءِ الضمير إلا عن طريق الحروف و الأصوات و... ، ثمّ توسّعَ معنى "الكلامُ" بمعناه العام فطبّقناه على ذاتِ الله تعالى أيضاً نظراً للحديث القدسيّ: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف...

ولكن وفقاً لهذا التفسير من الكلام، سيَتَّحدُ سنخُ التكلّمِ البشريّ عن الله سبحانَه وكذا سيَندَمِجُ التكلّم مع سائرِ الصفات الأخَر كالقدرة الإلهيَّةِ و الرازقيّةِ و... ، وقد التَزمَت به الفلاسفةُ.

الاستدلالُ التالي للأشعريّ

لقد أثبتَ الأشعريُّ المَعتُوه التغايرَ ما بين الكلام النفسيّ و بين العلم في الإخبار و الإرادة في الإنشاء، مستدلّاً بأنّ الجمَلَ الخبريّة تتمتّعُ بثلاثِ افتراضات: فإما أن يُعلمَ بالنسبة الحكميةِ الخبريّة و إمّا أن يُشُكَّ وإمّا أن يُعلمَ بالخلاف فرغمَ مخالفةِ الخبرِ مع الواقع إلا أنّا المخبرَ يُنبِأُ بذلك أيضاً، ثمّ استَنتَج بأن الإخبارَ بأمر مشكوك أو بحادثةٍ مضادةٍ للواقع يدلّ على أنّ الخبرَ يَفوقُ العلمَ إذ كيفَ يَشكّ المرءُ أو يعلمَ الخلاف و رغمَ ذلك يُنبأُ بهما، وهذا يَكشِفُ عن وجود عنصرٍ ثالث يُغايرُ العلم و الإرادة ولا مُناقشةَ في التَّسمية.

و نَطمِسُ عليه بأنَّه لو أرادَ إثباتَ أنّ الكلام النفسيَّ يُغايرُ حكمَ النفسِ بالنسبةِ الحكميّةِ فهو غير العلم فهذا مُتّفَقٌ عليه لأنّا نَعتقدُ بأنّ الإذعانَ بالنسبة الحكمية هو العلمُ لا محض حكم النفس، و لو أرادَ إثباتَ أنّ نفسَ العلمِ هو غيرُ حكمِ النفس بهذا العلم، فإنّا قابلوه أيضاً وفقاً للمحقّقِي الرشتيّ و الاصفهانيّ إلا أنّ المحقق الاصفهانيّ قد اعترضَهم بأنَّ هذا الحكم النفسانيُّ يُعدُّ من أفعال النفس الحادثة لا من الصفات و الكيفيات النفسانيّةِ؛ بينما يَودُّ الأشعريُّ إثباتَ قِدمَ صفةِ التكلّمُ وقد خابَ في تسجيل الكلام النفسيّ أخيراً بل قد نَجَحت فكرةُ المعتزلة والإمامية تماماً.[3]

---

[1] سورة النساء، الآية 164.

[2] و قد أشارَ إلى ذلک السيّد الخوئيّ أيضاً قائلاً: فلان المتكلم ليس مشتقاً اصطلاحياً. لفرض عدم المبدأ له، بل هو نظير هيئة اللابن، و التامر، و المتقمص، و المتنعل، و البقال

و ما شاكل ذلك، فان المبدأ فيها من أسماء الأعيان، و الذوات، و هو اللبن، و التمر، و القميص، و النعل، و البقل، و لكن باعتبار اتخاذ الشخص هذه الأمور حرفة و شغلا و لازماً له صارت مربوطة به، و لأجل هذا الارتباط صح إطلاق هذه الهيئات عليه. نعم أنها مشتقات جعلية باعتبار جعلية مبادئها و مصادرها. و السبب في ذلك أن الكلم ليس مصدراً للمتكلم، لفرض أن معناه الجرح لا الكلام، و كلم ليس فعلاً ثلاثياً مجرداً له، ليزاد عليه حرف فيصبح مزيداً فيه. و عليه فبطبيعة الحال يكون التكلم مصدراً جعلياً، و الكلام اسم مصدر كذلك. محاضرات في أصول الفقه (طبع دار الهادى)، ج2، ص: 29

[3] و بتعبير آخر، أولاً: إن هذا الإذعانَ بالنسبة إما من أفعال النفس فيصبح حادثاً ولكن الأشاعرة تنكره و إما أنه من الكيفيات النفسانية فتتحقق الصورة في النفس سواء كان شكاً أو مخالفاً للواقع فإنّه ليس عنصراً ثالثاً بل هو العلم بالكذب و العلم بالشک. وثانياً: بأنّ نفسَ الشکّ و نفسَ العلمِ بالخلاف قد تحقّقا في النفس البشريّ فحينما يُنبأُ عن المشكوک فمعناه أنّه قد علمَ بالمشكوک ثم أنبأ به، وكذا حينما يُنبأ بخلاف الواقع فإنّه في الحقيقةِ قد علمَ الكذبَ فأنبأَ به فيعدّ أُكذُوبةً خارجاً، إذن لم يَتسجّل أيُّ عنصر ثالث كالكلام النفسيّ، بل هو العلم فحسب، و إنّما التغيّرات فبسببِ المعلوم أعني متعلق العلم، ليس أكثر، وثالثاً: ألم يَفترِضِ الأشعريُّ الأغبرُ أنّ الكلامَ النفسيّ يَقعُ مدلولاً للكلام اللفظيّ بينما أساسُ الشک و خلافِ الواقع ليس أمراً قديماً راسخاً في النفس لكي يُنبأَ عنه المتكلمُ، إذن لا يحق للأشعريّ أن يَستشهِدَ بأنّ الإخبارَ يغايرُ العلم إذ الشک و... لا يُدلّ عليه و إذا دُلّ عليه فهو من نمط العلمِ بالمتعلّقِ أي إخبارٌ بالشک أو إخبار بالإهمال أو إخبارٌ بالهزل أو إخبار بخلاف الواقع و هكذا.

واعلم أنّ كلّ هذه التُرّهات قد انبثَقَت من التباعدِ عن مكتبةِ أهل البيت عليهم السلام فتخيّلوا العلمَ في عقولِهم الناقصةِ بينما قد استغرقوا أوقاتِ العلماء بأباطيلِهم التي لا يَفقهونَها فأمدّ الله ضلالتَهم و ختمَ على قلوبِهم فهم لا يفقهون، و نِعمَ ما قاله الإمام الصادق عليه السلام: الحمدُ لله الذي جعلَ أعدائَنا من الحمقى.